تمهيد
التآمر على القيادة المؤمنة..

لقد قامت الحرب على كل ما هو إسلامي، وكان هناك بغضٌ شديدٌ لقيادة العلماء لزمام الأمور، ورغبة قوية لإزاحتهم من الساحة، وإزالتهم من الصورة؛ والغاء حضورهم الجماهيري.. فكل شيء مقبول، وكل كلام مسموع، إلا ما كان موسومًا بالصبغة الإسلامية.. لقد كان هناك تخطيط واضح ومعلوم لتشويه العلماء، وامتهان مكانتهم، والحد من سلطتهم، و إفساح المجال للقيادات المنحلة، لتمثل الأمة وتقود الجماهير.. يقول الدكتور (محمد رجب البيومي) في كتابه عن إمام العربية الأكبر (مصطفى صادق الر افعي): "ونحن نتساءل هل نال المدافعون عن الحكم الإسلامي، بعضًا من الحظوة التي ينالها المنحرفون؟ إننا نلتفت ذات اليمين وذات الشمال، فنجد أصحاب الانحراف يتبوؤون أرقى المناصب، ويتصدرون الصفحات الأولى في أمهات الصحف، ويُنتشر لهم دوي مزعج في أدوات الإعلام المختلفة، بينما يحاول أنصار الفكرة الإسلامية نشر آرائهم، فتضن الصحف عليهم بمساحة صغيرة، تعلن عن رأيهم الصحيح، وتكتفي بتلخيص الرد إذا جاء من مسؤول كبير! حتى صرح شيخ الأزهر شاكيًا من إهمال الصحف لردوده! فإذا اشتكى شيخ الأزهر وهو الرأس الأعلى للإسلام في مصر من إهمال ردوده القاطعة، فبماذا يُعامل من دونه من العلماء والدعاة، وهم يسمعون اللغو الشائن، ويقرؤون السفه المنكر، ثم تدفعهم الغيرة الإسلامية إلى إحقاق الحق، فلا يجدون المجال المتسع للنشر! بل يجدون من يرميهم بالتعصب والتزمت دون حياء.. أذكر أن جمعية الشبان المسلمين عند تأسيسها الأول، قد صادفت حربًا ضارية لا لشيء، إلا لأنها ستكون جمعية

إسلامية في بلد إسلامي! مع أن جمعيات أخرى تنسب لطوائف دينية تجد التأييد التام، والمعونة المطلقة، ونحن لا نمنع أن تنتشر الجمعيات الدينية، إسلامية وغير إسلامية، لتدعو إلى الفضائل الإنسانية كما رسمتها الأديان الصحيحة، وإنما نمنع أن تعلو الصيحات عند إنشاء جريدة إسلامية أو جمعيات للشبان المسلمين، وكأننا بذلك نهدم بناء شامخًا، ورسوا حصينًا يحمي البلاد.!"[1]

ولعل هذا ما ظهر بوضوحٍ شديد في صراع الاستعمار الإنجليزي مع المقاومة المسلمة في الهند، حيث أدرك أنه من المستحيل أن يستسلم المسلمون ويرضخوا لسياسة الأمر الواقع، وفي ذلك يقول الحاكم البريطاني في الهند (النبرو): (إن العنصر الإسلامي في الهند عدو بريطانيا اللدود، وإن السياسة البريطانية يجب أن تهدف إلى تقريب العناصر الهندوكية إليها، لتساعدهم في القضاء على الخطر الذي يتهدد بريطانيا في هذه البلاد).

لقد علمت بريطانيا أن بقاءها في الهند لن يُكتب له الاستمرار في ظل مقاومة إسلامية صُلبة ترفض الذوبان والانبطاح والتوسل للمحتل، فلجأت إلى تنفيذ سلسلة من الخطوات الرامية إلى خلخلة هذه المقاومة وكسرها، عبر بعض الخطوات التي كان منها:

"*إقامة حزب المؤتمر الوطني الهندي، ليحي القومية الهندوسية الوثنية القديمة، لتكون عونًا لبريطانيا في محاربتها للإسلام والمسلمين في شبه القارة الهندية.

* تأسيس الحركات الهدامة التي تتسمى باسم الإسلام مثل القاديانية، التي نفت مبدأ ختم النبوة، ونبذت الجهاد ومقاومة المحتل، ودعت إلى طاعة الإنجليز والقبول بسياسة الأمر الواقع.

---

(١)- مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن .د- محمد رجب البيومي

* تزوير التاريخ الجهادي للأمة المسلمة، عن طريق نشر الكتب والمؤلفات التي تنبذ الجهاد والمقاومة، ومن ذلك كتاب المستشرق، تومس آرنولد: الدعوة إلى الإسلام.

*إبعاد العلماء وعزلهم عن قيادة وتوجيه الجماهير المسلمة، وإيجاد زعامات قومية إسلامية، تفتخر بقوميتها على حساب انتمائها إلى دينها وإسلامها.

وكان غاندي الهندوسي الديانة، هو الورقة التي لعب بها المستعمر، لكسر شوكة المقاومة الإسلامية، حيث قام (ريدينج) الحاكم البريطاني للهند بالاجتماع (بغاندي) وقال له: (إن مصدر الحركة الاستقلالية في الهند هم المسلمون، وأهدافها بأيدي زعمائهم، ولو أجبنا مطالبكم، وسلمنا لكم مقاليد الحكم، صارت البلاد للمسلمين، وإن الطريق الصحيح هو أن تسعوا أولاً لكسر شوكة المسلمين، بالتعاون مع بريطانيا، وحينئذ لن تتمهل بريطانيا في الاعتراف لكم بالاستقلال، وتسليم مقاليد الحكم في البلاد إليكم).

وبناء على التنسيق والتفاهم الذي تم بين (ريدينج) و(غاندي)، قامت بريطانيا بالقبض على الزعماء المسلمين المنادين بالاستقلال، فأصبح الطريق ممهدًا أمام (غاندي) الذي طلب من هيئة المؤتمر الإسلامي الهندوسي، بأن تُسلم له مقاليد الأمور بصفة مؤقتة، نظرًا لقيام بريطانيا باعتقال الزعماء المسلمين، وعندما عقد أول اجتماع برئاسة (غاندي)، نُفذ ما تم الاتفاق عليه مع الحاكم البريطاني (ريدينج)، وأعلن أن الوقت لم يحن بعد لاستقلال الهند."[1]

---

١ - أسطورة غاندي – د. خالد الغيث - موقع صيد الفوائد

ويقول الاستاذ أنور الجندي: "غاندي سرق الحركة الوطنية من المسلمين، والهندوسي الهندي المتعصب، الذي أخفى هندوسيته البغيضة وراء المغزل والشاة، وكان أول سياسي طالب بتأجيل الاستقلال مناديًا بمهادنة السلطة، وعدم مناوأة حكومة الاستعمار، لقد بدأت الحركة الوطنية لتحرير الهند في أحضان الحركة الإسلامية، وقد أزعجت الاستعمار البريطاني هذه الخطوة، فعمد إلى القضاء عليها بأسلوب غاية في المكر والبراعة، نُحى بها المسلمين عن قيادة الحركة الوطنية، وأسلمها إلى الهندوس، وأجبرها على الأسلوب الذي سيطر على الهند بعد ثورة ١٩٥٧ التي قادها المسلمون.. كان الاستعمار حريصًا ألا يتحقق للمسلمين السيطرة على الهند، بعد أن ظلوا يحكموها أكثر من خمسمائة عام.."[١]

لقد كان لعلماء الأزهر دورهم في التنديد والاستنكار بسقوط الخلافة الإسلامية على يد الطاغية اللعين أتاتورك، لقد صدحوا بأقلامهم وأصواتهم يدينون حربه للشريعة، وطمسه لمعالم الإسلام، وقضائه على مظهر القوة فيه وهي الخلافة الجامعة، التي كانت تمثل شريان الوحدة بين بلاد الاسلام وشعوبه.. وحينما هب العلماء هذه الهبة المدوية، فضحًا لهذا العميل المخرب، كانت هناك ردة فعل قام بها العملاء وأذناب الاستعمار وأعداء الهوية الإسلامية، فهاجموا العلماء بلا هوادة، وطعنوا في ذممهم وشخوصهم، وادعوا كذبًا أنهم كانوا على مر العصور سدنة الأنظمة، ومطايا الظالمين ودعاة المستبدين، كما رموا علماء تركيا بأوابل البهتان، ونسبوا إليهم الرشوة والفساد والتملق وسلب الحقوق بدعاوى كاذبة، لم يقدموا عليها دليلاً واحدًا يبين صدقها.!

---

١ - رجال اختلف فيهم الرأي – الاستاذ أنور الجندي

فكان لابد من استجلاء الحقيقة، والرد على البهتان، وفضح هذا الكذب البواح، الذي يشوه حقيقة العلماء، ويظلم دورهم التاريخي في حياة الأمة، وهو ما قام به زمرة من العلماء والكتاب والأدباء الذين أعادوا للأذهان بأقلامهم هذا التاريخ البطولي لعلماء الإسلام، الذي أُهمل وشابه الكذب وتناسته الاجيال، وكان على رأس هؤلاء وألمعهم الأديب الكبير (مصطفى صادق الرافعي) الذي خطط ليعيد إلى الساحة هذا التاريخ المغمور، الذي تضج به كتب الطبقات والتراجم ولا يعرفه المسلمون.. تاريخ يحكي شمم العلماء المسلمين وجسارتهم في مواجهة السلاطين الغاشمين، وأهل البغي من الحكام المستبدين فوقفوا للمنكر وتحدوا أطماع الطامعين.

لقد كتب عن سعيد بن المسيب، وعامر الشعبي، وابن حنبل، والعز بن عبد السلام والحسن البصري، وغيرهم من علمائنا الأبطال، والفقهاء المغاوير، وأصحاب الشجاعة النادرة، ممن كان له دويه وأثره في الساحة الثقافية والسياسية، حتى التفت القاصي والداني، لما كانت تجهله العقول، وتغفله الأذهان.! بل أوحى فعل الرافعي لكثير من الكتاب والأدباء، كشف النقاب عن ثقافتنا الإسلامية، وما فيها من بطولة وفداء، ونماذج حري بالبشرية أن تتعلم منها شِيم التحدي والإباء.

لقد كتب (توفيق الحكيم) مسرحيته التاريخية (السلطان الحائر)، وقام فيها بتصوير المواقف الشجاعة لسلطان العلماء (العز بن عبد السلام)، التي تحدى فيها نفوذ الأمراء والملوك العتاة الظالمين، وبين فيها إلى أي حد، قدم هذا العالم الجليل حياته فداء للحق، وعرض نفسه في سبيل مبادئه، للهلكة والمضرة والخطر العظيم، بصورة لا مثيل لها بين مصلحي الأمم وزعماء الشعوب.! وكان عدد كبير من القراء والمثقفين، مندهشون لهذه البطولة النادرة التي قدمها العز بن عبد السلام.. وظنوا أنها لم تكن لغيره من

العلماء، وأنها كانت شاذة في تاريخهم وحياتهم.. ولو أنهم قلبوا هذا التاريخ، لرأوا فيه أن العزة والبطولة والتحدي والثورة ومواجهة الباطل، لم تولد إلا على يد علماء الإسلام، ولم يحفل تاريخ بالكثير منها، كما يحفل تاريخهم الناصع وحياتهم المباركة.!

إن الدعاة العاملين، والعلماء الربانيين، كانوا الهدف المباشر لأعداء الإسلام، حيث كالوا لهم التُهم ورموهم بالشبهات حتى يُزعزعوا ثقة الناس فيهم، ويتخلوا عنهم ولا يؤمنون بهم، كقيادة تقودهم وتتبنى قضاياهم، وتهتم بشؤونهم، ويتركوا طاعتهم، ولا ينقادوا لهم في شيء.. ولقد كان من أكثر ما يعتمدون عليه في هدم هذه الثقة، هو رميهم بالإشاعات الكاذبة، واصطناع السمعة السيئة، التي تُحقق خبثهم المنشود، وإظهارهم بمظاهر الاستهزاء، لتسقط هيبتهم في النفوس.. "ففي فترة الستينات حيث ركزت الحرب ضد هذا الدين تركيزًا أثيمًا لم يسبق له نظير، حيث خرج في الساحة سيل من النكات على العلماء أو الشيوخ أو المسلمين المتمسكين بدينهم، مما كان له الأثر البالغ والسيء في النفوس، و أثره التهديمي الواضح في مقامات الأمة، وقد ساهمت ريشة رسامي الكاريكاتير في هذه الحملة، فركزت على رجالات الإسلام وعلمائه، فالعلامة الشيخ (حسنين مخلوف) كانت الكاريكاتيرات التي تقصده وتلمزه، تُطلق عليه اسم الشيخ متلوف، وقد رسم في إحدى المرات، أحد الشيوخ في موقف غير لائق بين راقصات يشاركهن الرقص، ليوحي للقارىء جملةً من الإيحاءات السلبية ضد الدين، ومن يدعون إليه أو يرتبطون به.

كما صدر في فترة من الفترات ملحق كاريكاتيري لإحدى المجلات الدينية! يصور الدعاة مجرمين أعوانًا للشيطان، وقتلة سفاحين متصلين بالأعداء والقوى الأجنبية، ومخلفات تلك المرحلة لا تزال في أفلام السينما حين تصور الشيخ أو المأذون أو المتدين أو رجل الطريقة.. إلخ.. مأفونًا من المأفونين،

غريبًا عن الحياة والناس، حتى طريقته في الكلام وملابسه وحركاته وشكله."[1]

ولا أعرف كيف ينسب هذا الفكر للإسلام؟ ولا أدري كيف تُلصق به هذه الآراء الغريبة التي يجعلها أصحابها أساس عقيدته، وصلب تعاليمه، وهي التي لم تكن في سلوك الصحابة الأماجد، والتابعين الكرام، وعلماء الأمة العظام، على مر تاريخها الرشيد.! لقد كان رسولنا الكريم ﷺ هو المحرر الأعظم الذي لم تعرف الدنيا مثله في حجمه وقدره هدمًا للعبودية، وتسلطًا على القهر والاستبداد.. كان عدوًا للظالمين، وسيفًا على الطاغين، داعية للثورة على كل طاغية جبار، لقد قال يومًا لأصحابه: (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر)[2] وقال يومًا: «سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله»[3]

هكذا كان رسولنا العظيم ﷺ، جاء لتحرير الدنيا، وأرسله الله رحمة للعالمين، ولو تأملنا لفظ الرحمة لعرفنا أن الرسول الكريم، لا يمكن أبدًا أن يقبل بأي صورة من صور الظلم والقهر والكبت وإهدار الحقوق، كما ينسب إليه بعضهم بتأويلات خاطئة وظنون معوجة.! إن الصمت والانبطاح والتبعية والتخاذل والخرس والانزواء أمام حاكم ضال ظالم جبار طائش، يحل الحرام ويحرم الحلال وينهب حقوق الأمة وثرواتها، ويسرق قوت الرعية ورزقها، يوالي أعداء الله، ويحارب أولياء الله، ويُمكن للصوص والخونة، ويمنع أهل النزاهة والشرف.. إنما هي أخلاق مردودة وجبن غير مقبول.

---

(١) –الاشاعة للدكتور أحمد نوفل . ط دار الفرقان

٢ - أورد أبو داود حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

٣ - السلسلة الصحيحة

من أين أتى هذا الصمت؟! ومن قال به في تاريخ أمتنا الثائر؟! ألا إن الاستسلام للظلم تحت دعوى طاعة ولي الأمر، ليس من أخلاق الإسلام، ومن يدعي فريتها، لم يفهم ما قرأ من نصوص خاصة، في أوقات خاصة، بظروف خاصة.. ولم يعي مغزاها والغاية منها.. أما الصمت والاستسلام فإنه يُمكّن للظلم، وينمي الجور، ويغذي حكم الطغاة المستبدين.!

أيعقل أن يكون هذا الانبطاح منتسبًا لدين جاء لتحرير الإنسان، وقمع هياكل الظلمة ومحو ألوان العبودية.. دين ذمت تعاليمه وأخلاقه كل صور الظلم وأشكال القهر والتجبر والجور؟! حتى أن كبار الأئمة الذين استشهدوا بها واجتهدوا فيها، كانوا هم أول من وقف في وجه الظلم والخطأ والانحراف، وتصدوا لأولي الأمر المتجبرين، وواجهوهم بشراسة حازمة وصمودًا أسطوريًا لا هوادة فيه..

كثير من المفاهيم المعوجة الخاطئة أصابت أذهان أمتنا وشوهت عقول أبنائها.. إنهم يستنكرون ويتعجبون إن رأوا متدينًا يعمل بالسياسة، أو عالم دين يتكلم في شؤونها، أو يشارك في ملاحمها وصراعاتها، ويواجه قادتها ويزاحم أحزابها.. وهو تصور سخيف وضيع لم يصغه الإسلام وزعيمه ﷺ.. وإنما جلبه الاستعمار، وساهم في رسم صورته ذيوله من عملاء الإعلام، وبقايا الماركسيين والشيوعيين.! وهي صورة أبعد ما تكون عن صورة العالم الحقيقي، الذي يرتضيه الإسلام، الذي يوجهه ليكون راعيًا للأمة ووليًا لأمرها، وساعيًا في قضاء مصالح أبنائها، حاميًا لهم، مدافعًا عنهم فيما يقع عليهم ويصيبهم من جور الحكام وعسف السلاطين..

لقد تأصلت هذه الرؤى المعوجة في كثير من الأفهام والأذهان، إلى حد كبير، يعيا معه من يريد تصحيحها ورد هرائها.. إن الشيخ له صورة معلومة في حياتنا ومحيطنا الذي نعيش فيه، فهو ذلك الشيخ المسالم الطيب الهادئ

الذي إن ضرب على خده الأيمن، أدار خده الأيسر، ولا مانع من أن يكون في أحيان أخرى درويشًا يأكل الفتة، ويهذي بكلام البُله والمجانين.. إنه ذلك الشيخ الذي لا يتكلم إلا في السلام والأمان والإحسان وأحكام الوضوء وفرائض الغسل.. وتكون جل مهمته في تعليم الناس هذه الأحكام والمسائل الفقهية.. أما أن يوجههم لطريق مصالحهم، ويفتي في شؤون الدنيا، ويدلي برأيه في سياستها، أما أن يتكلم في ثورة ومعارضة، أو ينتقد حكمًا أو قرارًا أو نظامًا أو مؤسسة من مؤسسات الدولة، فهو أمر غير مقبول أو مستساغ.!

لقد تعارف الناس في حياتنا المعاصرة، على صورة الشيخ بأنه هو ذلك الرجل المعمم الهادئ المستكين الهزيل الضعيف الذي يتكلم في فقه الغسل والطهارة، ويتصور أن الفقه هو العلم وهو الدين، وهو الطريق المستقيم، الذي يوصل للجنة دون ما عداه، فإذا تعلمته وعلمته للناس، فقد أديت ما عليك دون أن يكون لك اهتمام آخر بمصالح الأمة وسياستها التي تقوم عليها، وتوجه مصيرها ومستقبلها، ومن ثم.. فليس من الدين أن تتدخل في السياسة، وليس من الدين أن تخالف الحاكم ولو كان ظالمًا، وليس من الدين أن تناطح المستبدين فيما يشتهون، وليس من الدين أن تقول: لا لكل قرار أو توجه لا يعجبك، أو لا يتوافق مع مبادئك ومنهجك، ويا له من فهم غريب ليس من الإسلام في شيء.!

ولقد أحببنا في هذه السطور أن نُعيد هذه السيرة، ونحيي هذه الذكرى ،عساها تكون دعوة ونبتًا يقوم في أرضنا من جديد.